دم الشهيد

راضي عبده

بدا ذلك الصباح مختلفا تماما عن كل ما سبقه في عيني «خالد» وهو يقود سيارته في طريقه إلى منزل خطيبته بحي المعادي العريق وانتابته الدهشة من رؤيته لطريق كورنيش النيل الذي كاد يخلو من السيارات والمارة باستثناء بعض السيارات التي جعلت حركة السير في تلك الساعات الأولى من النهار انسيابية للغاية لم يرَها من قبل مطلقا، فضغط دواسة الوقود ليحث سيارته على الإسراع بعبور كوبري قصر النيل لتطالعه عشرات من الجماهير متدافعة من الجهة المقابلة له من الكوبري العتيق، سرعان ما تزايد عددهم حتى أصبحوا بالمئات على أقل تقدير ليبددوا بالفعل هدوء الكوبري.. عندها تذكر لماذا كان الهدوء يلف أرجاء شوارع القاهرة.. هذا لأن ذلك اليوم هو الخامس والعشرون من يناير عام ٢٠١١، هو عطلة رسمية لعيد الشرطة على وجه التحديد، وتذكر كذلك تلك الدعوات التي ملأت الـ«فيس بوك» و«تويتر» خلال الأيام الماضية للتظاهر في ذلك اليوم تحديدا ضد النظام كله على خلفية وفاة الشاب السكندري خالد سعيد، وموروث ثلاثين عاما من الذل والهوان، لكنه للحق لم يُعِر تلك الدعوات أدنى اهتمام.. لقد كانت بالنسبة له مجرد عبث لا طائل منه أو تقليد أعمى تماما كالذي حدث في تونس، لكن الوضع في مصر مختلف تماما.. هكذا يقول رجال النظام، فلا طائل من تظاهرات لن تجدي مع نظام متأصل في البلاد

قِدم الدهر، لذلك لم يجد في نفسه القدرة حتى على مجرد التفكير في النزول مثل بقية شباب جيله أو هي طبيعته الانطوائية وخجله الشديد هما ما يحركانه، فطوال عمره ومنذ أن وعت عيناه على الدنيا وجد نفسه وحيدا، على الرغم من أن له أخا غير شقيق تفانى والده المهندس المعماري الشهير في رعايتهما، على الرغم من اختلافهما الواضح في كل شيء، فهو كان هادئا وخجولا للغاية على النقيض من أخيه الأكبر الذي كان عصبيا ودائم الشجار مع والده لزواجه بأخرى بعد وفاة أمه؛ لذلك كان يكرهه بشده ويعامله أسوأ معاملة، خاصة بعد عمله بجهاز الشرطة ليكتسب منها صرامة وقسوة شديدة يعامله بها و...

انتزع نفسه من ذكرياته مع اقتراب تلك الحشود من سيارته قاصدين ذلك الميدان الشهير في قلب القاهرة.. ميدان التحرير، كما أعلنوا ذلك أمس، فلم يجد أمامه مفرا سوى أن يضغط فرامل سيارته ببطء، وهو الذي كان متأهبا للانطلاق بها بسرعة ولم يكد يفعل حتى أبصر في مرآة سيارته الجانبية ذلك التنظيم من جنود الأمن المركزي قادمين من خلفه باتجاه تلك التظاهرة التي أصبح هتافها واضحا جليا للغاية: سلمية.. سلمية.. عيش.. حرية.. عدالة اجتماعية.

لم ينتظر كثيرا حتى التقى الجانبان في منتصف الكوبري تماما.. عندها تقدم الجنود من المتظاهرين يحاولون تفريقهم بقوة لينهالوا عليهم ضربا بهراواتهم الغليظة بقسوة ووحشية، فهاله ذلك المشهد بقوة، خاصة عندما وجد أحد الجنود وهو يضرب إحدى السيدات على رأسها فيشجه لتسيل منه الدماء لتغمر وجهها.. عندها تخلى عن جموده ونزل من سيارته وهو يسرع الخطى باتجاه تلك السيدة التي هوت أرضا، وجثا على ركبتيه يحاول جاهدا أن يوقف نزيف جرحها وهو يهتف في غضب عارم استنكر بشدة أن يكون بداخله: حرام عليكم يا جنود الأمن، ألا توجد في قلوبكم رحمة؟ واستطرد وهو يعاون هذه السيدة على الارتكان على حاجز الكوبري: أليس

هؤلاء هم أهلكم جميعا؟ فلماذا بالله عليكم تفعلون بهم ذلك؟! هتفت فيه السيدة في وهن شديد: دعك مني يا بني فالأهم الآن هي مصر وهي اليوم في أشد الحاجة إلى أمثالك. وقبضت على يديه وهي تحثه على ملاحقة أقرانه من الشباب في تلك التظاهرة بنظرة ملأها الحنان.

انتفض لها قلبه ليشعر وكأن أمه الراحلة التي لم يرَها مطلقا تحدثه قائلة له في حماس منقطع النظير: هيا يا بني مصر تنادي.. انتبه في تلك الأثناء إلى الاشتباكات الدائرة حوله بين المتظاهرين ورجال الأمن فحسم أمره وهو ينفض عن نفسه قناع الخجل الذي ظل يلازمه طوال حياته مع سماعه الهتافات الحماسية فابتسم لها وهو يومئ برأسه موافقا وأسرع باتجاه المتظاهرين يهتف معهم بكل ما أوتي من قوة وعزيمة، وبينما هو كذلك إذا به يلمح ذلك الجندي الذي شج رأس تلك السيدة حتى أسرع بمهاجمته في شجاعة لا يدري كيف واتته، لكن لم يكد يفعل حتى أمسك به زملاؤه لينهالوا عليه ضربا بالركلات واللكمات ويودعوه مع آخرين من الشباب الثائر إحدى سياراتهم ليجد نفسه بعدها في قسم قصر النيل وعلى الرغم من مساعي محامي والده الشهير لإخراجه حتى بضمان مالي إلا أنهم أصروا على إيداعه الحبس أربعة أيام على ذمة جريمة شغب ومقاومة رجال الأمن.. ثلاث ليالٍ قضاها في محبسه حتى مساء ذلك اليوم الثامن والعشرين من يناير وبينما هو يتجاذب أطراف الحديث مع رفاق محبسه حول مصير تلك التظاهرات مقارنة بقوة النظام الحاكم للبلاد إذ بأصوات جلبة قوية تدوي في أرجاء القسم فأصابهم الارتباك والاضطراب جميعا لما يحدث ليفاجئهم باب محبسهم وهو يفتح على مصراعيه برصاص أحد المقنعين الذين طالعهم وهو يحمل بندقية آلية ويصرخ فيهم في حسم وصرامة: هيا اخرجوا جميعا بسرعة..

عندها ساد الهرج في المكان وجميع من في الزنزانة يهرول مسرعا باتجاه باب الخروج وتسمر خالد في مكانه من شدة ذهوله لما حدث فإذا بذلك

الرجل المقنع يلوح له ببندقيته في صرامة وقوه هاتفا به:
- ألم تسمع كلامي جيدا يا هذا؟ هيا أسرع قبل أن أفرغ رصاص هذه البندقية في رأسك.
انتزع «خالد» نفسه من دهشته وتساؤلاته الحائرة وهو يسرع بالفعل للخروج من القسم لينضم إلى المئات الذين طالعهم عند خروجه بالفعل فسار معهم وهو يردد هتافات بلغت عنان السماء بحناجر ملتهبة بالحماس، وياله من مشهد لا تستطيع أبلغ الكلمات أن تصفه وصفا دقيقا ذلك الذي شاهده في ميدان التحرير مشهد رائع بحق لشعب ينهض كالعنقاء من سباته العميق.. حقا إنها الملحمة الشعبية لثورة مصرية خالصة لشعب ثار أخيرا على الظلم والفساد الذي لازمه طويلا كظله.. دارت الأفكار برأسه بذلك الحلم في الحرية الذي ظل يحلم به طوال الأيام الماضية بمحبسه بعد أن رأى الأمور من منظور مختلف تماما كما كان يراها، وبينما يلهب الحماس كيانه وهو يهتف بتلك النداءات القوية التي ترج الميدان كله بقوة إذا به يهوي أرضا لتطالعه تلك البقعة الحمراء من دمائه تلون صدره، ونظر باتجاه من أطلق عليه تلك الرصاصة الصائبة والدهشة تملأ ملامح وجهه غير مصدق ما يراه وهو في ذهول شديد قائلا:
- أنت يا «أكرم».. أنت يا أخي.. تقتلني بيديك؟
هتف به أخوه في تحدٍّ وعلى وجهه نظرة شامتة مصوبا مسدسه باتجاهه:
- نعم يا خالد، لقد جاء اليوم الذي سأنتقم فيه من والدي في شخصك لأحرق قلبه عليك لسوء معاملته لي طوال حياتي.
هتف فيه «خالد» في صوت خافت بكلمات تقطر مرارة وألما:
- لقد كنت دائما جحودا لوالدك الذي كان نعم الأب لك ولم تعامله كما أمرك الله بل كنت مثالا للابن العاق دائما.
وتمتم وهو يبتلع ريقه في صعوبة بالغة:
- هل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟

قاطعه صوت أحد أفراد الشرطة قادما من خلفه هاتفا به في اضطراب ممزوج بالخوف الشديد:

- الحشود تتزايد بسرعة كبيرة يا أفندم ولم يعد باستطاعتنا منع تقدمهم لاحتلال الميدان.. إنها حقا ثوره شعب.

عندها فقط تهاوت جفون «خالد» وهمدت حركته تماما لتعلو شفتيه ابتسامة نصر.

obeikan.com